تضخم مرويات المجال العسكري في المصنفات السيرية

الباحث: عبد العزيز ايت مالك
باحث بسلك الدكتوراه
إشراف: د المنصف لكريسي
جامعة القاضي عياض، مراكش
المغرب

يهدف البحث إلى الإبانة عن حاجة المسلم والأمة إلى الاستمداد من السيرة النبوية في مختلف فروعها وفنونها. ويرصد حجم التضخم الذي لحق بأحد فروع هذا العلم، في مدونات السيرة والمغازي، وهو الجانب العسكري، مقابل ضمور جوانب أخرى، من الحياة النبوية، يجد الدارس حضوراً لها في مصادر أخرى في غاية الأهمية، غير مؤلفات المغازي.

Abstract:

The research aims to demonstrate the need of the Muslim and the ummah to derive from the prophetic biography in the periphery of its branches and arts.

The magnitude of the inflation inflicted on one branch of this flag is monitored in the Biographical and Invasive books, the military aspect, as opposed to the weakness of other aspects of prophetic life, to which the researcher finds a presence in other sources of great importance, other than the Maghazi books.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأفضل الصلاة وأزكى التسليم على حبيبنا ونبينا محمد، صاحب السيرة العطرة المشرفة، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

وبعد،

غانٍ عن البيان، أن السيرة النبوية هي التجسيد الفعلي، والتنزيل العملي للإسلام، متجسدة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثمة، تظهر ضروة دراستها، وحاجة الفرد والمجتمع إلى الاستمداد منها، والاقتداء بصاحبها، عليه أفضل الصلاة التسليم.

على أن الاقتداء والائتساء يقتضي الشمول والتوازن، فيستحضر المسلم الجوانب المتعددة في شخصية النبي صلى الله عليه وسلم، من سيرته المطهرة. وليس تضخّم جانب، مقابل ضمور جانب آخر، وهو ما يلاحَظ في اقتصار كثير من الناس على مطالعة مصنفات المغازي، التي فيها احتفال كبير بالجانب العسكري من الحياة النبوية.

تبرز الإشكالية في الآتي:

أين يتجلى استحواذ الجانب العسكري في مدونات السيرة؟ وما أثر ذلك التضخم؟

أليست مدونات السيرة والمغازي مشتملة – على جهة الاستيعاب – لجميع جوانب الحياة النبوية؟ أم ثمة مصادر أخرى- متفاوتة في الأهمية والوثاقة – لا بد من ضمها إليها، لتحقيق الاستيعاب والشمول؟

واشتمل البحث –الذي اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي– على محورين اثنين: كشف أولهما عن بعض تجليات تضخم المرويات العسكرية في المصنفات السيرية، واقترح ثانيهما سبيلاً لتجاوز تضخم المرويات العسكرية، من خلال دراسة المصادر الأساس للسيرة النبوية.

هذا، وإنما الموفق من وفقه الله

المحور الأول: من تجليات تضخم المرويات العسكرية في المصنفات السيرية

معلوم أن يشتمل علم السيرة النبوية على فروع عدة: المغازي، والشمائل، والخصائص، والدلائل والأعلام والمعجزات.

وليس يخفى أن رواية السيرة النبوية وتدوينها تنازعه منهجان رئيسان: منهج المحدثين، ومنهج المؤرخين، ولكل سماته، وخصائصه.

ارتبط تضخم البعد العسكري في الأخبار والمرويات السيرية بشكل بارز بمنهج المؤرخين، الذين عملوا على تأريخ الاحداث السيرية حسب الأعوام والسنين (المنهج الحولي). حيث كان التركيز على رواية وتدوين الأحداث الكبرى لكل سنة. وكان الاهتمام منصبا – في البداية– على المغازي النبوية.

وكُتّاب السيرة والمغازي تبعٌ للمؤرخين في المنهج، من حيث السعي إلى جمع الروايات المختلفة للحدث، حتى يبدو قصة كاملة، وعرض الأخبار متسلسلة وفق تعاقب السنوات. ويبرز هذا التضخم بالتركيز على التأريخ للأحداث العسكرية، حتى غدا طاغيا على مصنفاتهم، وكان من أثر ذلك: اختزال الحياة النبوية على أنها سلسلة متواصلة من المعارك الحربية، وتاريخ للغزوات والسرايا فقط، وإغفال الجوانب الأخرى.

وهو ما أوهم – أو كاد –أن السيرة النبوية ليست سوى غزواته. والحق أن المغازي النبوية مكون أصيل من مكونات سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وجزء لا يتجزأ منها، بيد أنها ليست وحدها هي السيرة النبوية. والملاحظ أن عناية المصنفين أهل السيرة والمغازي توجهت إلى المغازي أكثر من غيرها، دون سائر المكونات الأخرى.

وجرت بعض الكتب على حمل اسم (المغازي). ومنها، على سبيل المثال:

–المغازي، لعروة بن الزبير (ت94هـ).

– المغازي، لمحمد بن مسلم الزهري (ت 124هـ)

– المغازي، ليزيد بن رومان (ت130هـ)

–المغازي، لموسى بن عقبة (ت141هـ)

–المغازي لسليمان بن طرخان التيمي (ت143هـ)

–المغازي، لمحمد ابن إسحاق(ت151هـ)

– المغازي، لمعمر بن راشد (ت153هـ)

–المغازي، لأبي معشر السندي (ت170هـ).

–المغازي، لعبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن حزم (ت176هـ)

– المغازي، ليحيى بن سعيد الأموي (ت194هـ)

– المغازي، للوليد بن مسلم الدمشقي (ت 195هـ)

– المغازي، لمحمد بن عمر الواقدي (ت 207هـ)

–المغازي، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت211هـ).

-المغازي، لأبي الحسن المدائني (ت225هـ)

-المغازي، لمحمد بن عائذ القرشي الدمشقي (ت234هـ)

-المغازي، لعبد الملك بن حبيب الأندلسي (ت237هـ)

- المغازي، للقاضي إسماعيل بن إسحاق (ت282هـ)

- المغازي، لإبراهيم بن إسحاق الحربي (ت285هـ)

إن هذه الكتب الآنفة الذكر ونظائرها، التي وُسمت ب (المغازي)، موضوعها الرئيس هو الكشف عن الجانب العسكري النبوي، بما هو فرع من فروع علم السيرة النبوية.

وبإلقاء نظرة عجلى إلى محتوى (كتاب المغازي) للزهري[1] مثلاً، نجد أبرز معالمه كالآتي:

استهل مصنّفه بحدث حفر زمزم، وبعض إرهاصات النبوة، وحادث شق الصدر، وزواج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة، وأولاده منها، وبداية نزول الوحي.

- أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم، وإسلام عمر بن الخطاب.
- حادث الإسراء والمعراج وما يتعلق به
- خبر هرقل وكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إليه.
- الغزوات:

وقعة بدر، وقعة بني النضير، أحد، الأحزاب وبني قريظة، الأحزاب، عمرة القضاء، فتح مكة، حنين، خبر بئر معونة،

- المهاجرون إلى الحبشة، الهجرة إلى المدينة، تأسيس مسجد المدينة.
- الإذن بالقتال، غزوة تبوك، حديث الإفك
- مرض النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم استرسل في عرض أحداث الخلافة الراشدة.

إن مدار معظم المرويات السيرية في مغازي محمد بن شهاب الزهري على الغزوات النبوية، مع إشارات إلى أبرز الأحداث المرحلة المكية.

وإذا تم استعراض أهم مضامين كتاب (السيرة النبوية) لابن هشام، باعتباره كتابا جامعا في السيرة النبوية، نجدها كالآتي:

فالمادة السيرية غير العسكرية (خلا الغزوات والسرايا) في سيرة ابن هشام مثلاً - خلال المرحلة المدنية - تبدأ بالهجرة النبوية، ثم:

- المؤاخاة بين المهاجرين الأنصار، وخبر الأذان، والاعداء من يهود، وإسلام عبد الله بن سلام، وحديث مخيريق، ومن اجتمع إلى يهود من منافقي الأنصار وما نزل في الفريقين.
- أمر السيد والعاقب وذكر المباهلة.
- من اعتل من الصحابة
- تاريخ الهجرة

- صرف القبلة إل الكعبة
- خروج زينب إلى المدينة، وإسلام أبي العاص بن الربيع
- نزول سورة الأنفال
- خبر الإفك
- أمر الهدنة، وما جرى عليه أمر قوم من المستضعفين بعد الصلح، وأمر المهاجرات بعد الهدنة.
- أمر فدك
- تسمية النفر الداريين الذين أوصى لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر
- قدوم جعفر رضي الله من الحبشة وحديث المهاجرين إلى الحبشة.
- عمرة الرسول صلى الله عليه وسلم من الجعرانة، واستخلافه عتاب بن اسيد على مكة.
- أمر مسجد الضرار.
- أمر وفد ثقيف
- حج أبي بكر بالناس
- الوفود: وفود (بني تميم- بني عامر – عامر بن الطفيل – عبد القيس – بين حنيفة – طيء- همدان ...)
- وصية الرسول صلى الله عله وسلم معاذاً حين بعثه إلى اليمن.
- خروج الأمراء والعمال على الصدقات
- حجة الوداع
- خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك
- ذكر أزواجه أمهات المؤمنين
- تمريض الرسول صلى الله عليه وسلم في بيت عائشة
- أمر سقيفة بني ساعدة
- جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفنه.

تلك هي أبرز المحطات السيرية غير العسكرية التي تضمنتها سيرة ابن هشام خلال المرحلة المدنية. وما تبقى هو حديث عن الغزوات والسرايا، بدءا بغزوة ودّان، وانتهاء ببعث أسامة بن زيد إلى الشام.

يمكن القول بأنه ليس ثمة كبير فرق بين الكتب التي عنونها أصحابها بالمغازي، وبين تلك المسماة بالسيرة، فالبعد العسكري هو الطاغي في الصنفين معاً. بل أضحى مصطلح المغازي مرادفاً للسيرة النبوية عند المصنفين في هذا العلم المنيف.

يُدرك القارئ للمصنفات السيرية الجامعة، سواء تلك التي حملت اسم (السيرة)، أو المسماة ب (المغازي) ندرة المكونات الأخرى، من الشمائل النبوية، والخصائص والدلائل. وهذه أولت لها مصنفات الحديث عناية فائقة. ذلك أن منهج مدرسة السيرة النبوية مبني على تتبع الأحداث السيرية البارزة وفق السنوات والأعوام، تأثراً بمنهج المؤرخين.

إن المفهوم الشائع للسيرة النبوية ينصرف – أو يكاد – حين الإطلاق- إلى الغزوات والسرايا، وما يتصل بها من أحداث. أو لنقل بشكل أدق: إن تمثلاتنا عن السيرة النبوية – خلال العهد المدني تحديداً – هي مجموعة من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه، تنضاف إليها وقائع محدودة، مثل: بناء المسجد النبوي والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار وموادعة اليهود، ووفود القبائل على النبي صلى الله عليه وسلم.

والفقه المستنبط من هذا، يصح تسميته ب "فقه المغازي"، مادام البعد العسكري هو المهيمن عليه.

أشار د عماد الدين خليل إلى أن "المدونات الأولى لأخباريي ومؤرخي السيرة، كمغازي الواقدي، وسيرة ابن اسحاق، وطبقات ابن سعد، وأنساب البلاذري، وتاريخ الطبري...، بإعطائها مساحة واسعة للمغازي – وأحيانا للرجال أو الشمائل – ضيقت الخناق على البعد العمراني أو الحضاري لعصر الرسالة الذي تمكن بعد كفاح مرير من إقامة دولة الإسلام، ووضع التأسيسات الأولى لحضارته المتميزة"[2].

إن ما ذُكر من الجانب الحربي ليس إلا جزءاً يسيراً من مفهوم السيرة النبوية، الذي "يمتد ليستوعب الحركة النبوية الكلية في فقه الدعوة إلى الإسلام أولا، وفي فقه البناء الفكري والروحي والتربوي والسلوكي لأجيال الدعوة ثانياً، وفي فقه البناء الفكري والقانوني أو التشريعي والاجتماعي المؤسسي للمجتمع والدولة ثالثاً، وفي فقه المواجهة للتحديات الذاتية والخارجية التي كانت تواجه ذلك كله رابعاًن وفي فقه الحماية لمنجزات حركة الدعوة والتربية والبناء والمحافظة على استمراريتها خامساً"[3].

ويبدو أن بعض المؤلفين في السيرة النبوية لم يكتفوا – في مصنفاتهم– بفرع المغازي، إشارة منهم إلى أن مفهوم السيرة النبوية أوسع مما قد يتوهمه البعض.

فهذا الحافظ الذهبي في السيرة النبوية، ضمن كتابه "تاريخ الإسلام" ذكر الأحداث الكبرى خلال السنوات الإحدى عشرة من الهجرة، ثم أعقبها بذكر "الترجمة النبوية"، وهي بعض شمائل النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته، وخصائصه، فضلاً عن بعض أحداث المرحلة المكية.

وإذا كان المحدثون المؤرخون وكتّاب المغازي والسير اختلفوا – لاختلاف الروايات – في عدد مغازي النبي صلى الله عليه وسلم، فبلغ بها من توسع في عدّها سبعا وعشرين غزوة. ومجموع الغزوات والسرايا نحواً من مائة"[4] فإن ثمة مساحات زمنية واسعة، لم تتطرق إليها كتب السيرة النبوية، بل حتى مغازي النبي صلى الله عليه وسلم تتضمن – إضافة إلى بعدها العسكري – أبعاداً أخرى: تربوية، اجتماعية، علمية، سياسية... قد لا يوجد لها احتفال في كتب السيرة والمغازي.

لذلك تساءل أحد الباحثين " إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشارك بنفسه [في الغزوات] بمعدل مرتين في السنة، ويُحضّر ويرسل ويتابع حركة السرايا التي كانت تحدث بمعدل سرية في ثلاثة شهور أو أكثر. والسؤال هو: ما ذا كان يفعل في بقية الوقت الآخر من حياته وسيرته؟ أين بقية هذه الحركة النبوية الضخمة الدائبة في المادة العلمية لعلم المغازي النبوية، أو لفقه المغازي النبوية، الذي لا يمثل إلا جزءا يسيراً جداً من المادة العلمية الضخمة جداً للسيرة النبوية بمفهومها العام؟"[5]

والجواب عن هذا السؤال: أن الجوانب الحياتية النبوية لا تستقل بها كتب السيرة والمغازي وحدها، بل يجدها الباحث في مصادر أخرى، تتفاوت في القوة والمرتبة.

إن مدونات الحديث – خاصة الملتزمة منها بالصحة – وإن كانت تفوق مصنفات السيرة والمغازي من حيث صحة المادة السيرية، فإنها تفوقها أيضاً من حيث درجة الاستيعاب للجوانب المتعددة لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم. فقد وردت فيها المادة السيرية بشكل موضوعي، باعتبار الكتب والأبواب.

وقد أدرك الشيخ محمد الغزالي رحمه الله ذلك حينما قال:

"قد تظنّ أنك درست حياة محمد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأ بالغ.

إنك لن تفقه السيرة حقّا إلا إذا درست القران الكريم والسنّة المطهرة. وبقدر ما تنال من ذلك، تكون صلتك بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم"[6]

ولعل من أثر تضخم المرويات الحربية في السيرة النبوية:

- توهم طغيان الجانب الحربي في الحياة النبوية، سواء من المسلمين أنفسهم، أو من غيرهم، ممن يقرأون عن الإسلام، وعن سيرة نبي الإسلام. إذ تغيب عنهم عنهم - أو تكاد – مظاهر الرحمة في سيرة النبي العطرة، ويغيب عنهم – أو يكاد – النبي الزوج الحنون، والأب الرؤوف، والقاضي العادل، والتاجر الأمين الصادق...
- غمط السيرة إحدى أعظم خصائصها، وهي خصيصة الشمولية.

ضعف الاقتداء والائتساء: إذا كان الحكم عن الشيء فرعا عن تصوره، فإن اختزال السيرة النبوية في الجانب الحربي فقط، لا يمكّن من التصور الصحيح الشامل لسيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. فقد ظلت السيرة النبوية مختزلة في قصص حربية تروى من الآباء للأبناء، بعضها يصح، وبعضها الآخر، لم يثبت، ومن الطبيعي أن يكون الائتساء المطلوب ضعيفاً، نتيجة غياب التوازن بين مجالات الحياة النبوية، ومن ثمة، حرمان الاستفادة التامة من هدايات السيرة النبوية.

المحور الثاني: دراسة مصادر السيرة النبوية سبيل لتجاوز تضخم المرويات العسكرية:

إن المصادر الأساس التي يجب أن يستمد منها علم السيرة النبوية، وتُلتمس منها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بكل جوانبها وتفاصيلها، مرتبة حسب الأهمية والوثاقة، كالآتي:

1- القرآن الكريم: وهو أول المصادر ورأسها الذي يلزم الرجوع إليه في معرفة السيرة النبوية، إذ اشتمل على مشاهد كثيرة من السيرة النبوية قبل المبعث، وبعده، من الولادة والنشأة، إلى الوفاة. فقد أشار إلى يُتْم النبي صلى الله عليه وسلم، في قوله عز وجل: {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ ٦} [سورة الضحى:6]. وإلى أميته، في قوله تعالى: {وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ٤٨} [سورة العنكبوت:48]. والحديث عن الهجرة النبوية: {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠} [سورة التوبة:40].

فضلاً عن الحديث عن مشاهد كثيرة من المرحلة المكية، مثل نزول الوحي، وطريقة تلقي النبي صلى الله عليه وسلم له، ومواقف المشركين من بعثته، وأصناف أذاهم له ولأصحابه... وفي المرحلة المدنية أشار إلى مجموعة من الوقائع، على رأسها الغزوات، مثل حديثه عن غزوة بدر الكبرى، في قوله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧} [سورة الأنفال: 7].

وتطرق القرآن الكريم إلى غزوة أحد وبني النضير، والأحزاب والحديبية، والفتح وحنين، وتبوك...

وأبرز مواطن فرادة القرآن في عرض مشاهد السيرة النبوية: إبراز الحالة النفسية.

من ذلك تصوير الحالة النفسية للنبي صلى الله عليه وسلم في بعض المواقف. مثل قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ

زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۚ ٣٧} [سورة الأحزاب:37].

وتصوير نفسيات المنافقين وفضح سرائرهم ومكائدهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللإسلام. من ذلك قوله عز وجل:

قوله تعالى: {إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۚ ١} [سورة المنافقون:1]. وقوله عز وجل: {يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۚ ٦٤} [سورة التوبة:64].

وأشهر من عني باستخلاص السيرة النبوية من القرآن الكريم خاصة: محمد عزة دروزة، في كتابه: سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صورة مقتبسة من القرآن"، وصدر في مجلدين.

ويلحق بالقرآن الكريم دواوين التفسير، وكتب أسباب النزول.

2- مدونات الحديث النبوي، وعلى رأسها صحيحا البخاري ومسلم، ثم كتب السنن، والموطأ، ومسند أحمد، وغيرها. فقد ضمت بين تضاعيفها جوانب كثيرة من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، فضلاً عن إفراد مؤلفيها كتباً وأبواباً سيرية، مثل: المناقب، والمغازي، الجهاد والسير...

وتأتي أهمية هذا المصدر في كون كتب الحديث موثقة ومسندة، بالإضافة إلى دقة منهجها. لذلك تُقدّم مروياتها على مرويات غيرها، خصوصا روايات الصحيحين.

فالإمام البخاري خصص للبعد العسكري كتاباً هو كتاب المغازي. وكتاباً آخر لذكر الأحوال النبوية في الغزو، والعلاقات الدولية، وهو الجهاد والسير. لكن أورد كتباً أخرى اشتملت على أبعاد أخرى من السيرة النبوية. فكتاب التيمم تضمن حديث نزول آية التيمم، وكتاب الصلاة اشتمل على أبواب، منها: كيف فرضت الصلوات في الإسراء؟ وتحويل القبلة في باب التوجه نحو القبلة حيث كان، وبناء المسجد في باب التعاون في بنيان المسجد. وقصة حنين الجذع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كتاب الجمعة.

وتوزعت الشمائل النبوية بين كتب المناقب والأدب واللباس.

فمما اشتمل عليه كتاب المناقب من الشمائل: أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيئين، كنيته، خاتم النبوة، صفة النبي صلى الله عليه وسلم، علامات النبوة... وتضمن كتاب اللباس ألبسته في السلم والحرب، من التقنع عند الخروج للهجرة، ولبس المغفر، والبرود والحبرة. وضمّ كتاب الأدب طائفة من الأخلاق النبوية، من الصبر والحياء، والانبساط إلى الناس، والتبسم والضحك، والتجمل للوفود... وفي كتاب أخبار الآحاد ذكر بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الأمراء والرسل، ووصاته عليه والصلاة والسلام وفود العرب أن يبلغوا مَن وراءهم...

واشتمل كتاب فضائل الصحابة على مناقب المهاجرين وفضلهم، وكذا كتاب مناقب الأنصار.

إن كتاب (جامع الأصول في أحاديث الرسول، لمجد الدين ابن الأثير الجزري[7] – الذي جمع أحاديث الكتب الستة: الصحيحين، وموطأ مالك، وجامع الترمذي، وسنن أبي داود، وسنن النسائي— اشتمل على مادة سيرية مهمة.

أورد بابا في حج النبي صلى الله عليه وسلم وعمرته، – ضمن كتاب الحج والعمرة — تحته فصلان: في عدد حجاته وعمره ووقتها، وفي حجة الوداع، في ثمان وعشرين صفحة.

وتعرّض لذكر الخلفاء الراشدين وبيعتهم، ضمن الخلافة والإمارة.

واستغرق كتاب الغزوات والسرايا والبعوث حوالي ثلاث وخمسين ومائتي صفحة، بدءاً بغزوة بدر، واختماما بغزوة تبوك.

وضمّ كتاب الفضائل والمناقب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ومناقبه، وفضائل الصحابة ومناقبهم، سواء فما اشترك فيه جماعة منهم، أو ما انفرد به الواحد منهم من مناقب: من المهاجرين والأنصار، والنساء الصحابيات، وأهل البيت، وأهل العقبة، وبدر، والشجرة. واستغرق ذلك قريباً من ثلاثمائة صفحة. وأعقبها بذكر فضائل مكة والمدينة.

وفي ذكر المساجد، ألمح إلى بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ومنبره.

أما كتاب النبوة فضمّ خمسة أبواب سيرية:

أولها في أحكام تخص ذاته صلى الله عليه وسلم (الخصائص النبوية) وضمّنها اسمه ونسبه الشريف، ومولده وعمره، وأولاده وصفاته واخلاقه.

وثانيها في علاماته صلى الله عليه وسلم: ما كان منها قبل المبعث وبعده.

وثالثها حول بدء الوحي وكيفية نزوله، ورابعها في الإسراء وما يتعلق به، واختص خامسها بعرض معجزاته ودلائل نبوته، واشتملت على إخباره عن المغيبات، وتكليم الجمادات له وانقيادها إليه صلى الله عليه وسلم، وزيادة الطعام والشراب، وإجابة الدعاء، وكف الأعداء عنه، وما سئل عنه، فضلا عن معجزات متفرقة. وذلك في حوالي سبع وثمانين ومائة صفحة. (193 رواية).

وذكر الهجرة في كتاب الهجرة، وفي كتاب القضاء، أفرد باباً لنماذج من أقضية النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي كتاب النكاح عقد الفصل الأول حول زواج الرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه رضي الله عنهن. (17 رواية).

و"إن أحاديث صحيح البخاري لو ضمت بعضها إلى بعض، لخرجت منها السيرة النبوية، ومعها المجتمع الإسلامي في الصدر الأول ماثلة أمام القارئ"[8].

ينضاف إلى كتب مدونات الحديث، مما يتصل بها –: كتب الصحابة، التي عنيت بترجمة الصحابة وطبقاتهم. ففيها مادة سيرية مهمة.

ويلاحظ أن مصنفات الحديث أكثر وفاء بالأبعاد والجوانب الحضارية المختلفة للسيرة النبوية، باعتبار كون غالبها مرتبة ترتيبا موضوعيا على الأبواب.

3- مصنفات الشمائل والدلائل والخصائص. ولها نفس مميزات كتب الحديث، من حيث اعتمادها الروايات المسندة.

فأما كتب الشمائل فتعنى بالإبابة عن الصفات الخلقية والخلقية للنبي صلى الله عليه وسلم.

وأما كتب الدلائل أو المعجزات، فقصد أصحابها إلى جمع معجزاته صلى الله عليه وسلم ودلائل نبوته.

وابتغى مصنفو الخصائص جمع ما اختص به النبي صلى الله عليه وسلم.

4- كتب السيرة والمغازي:

وتعنى بسرد السيرة النبوية من المولد النبوي – وما قبله – إلى غاية الوفاة النبوية، وفق التسلسل الزمني للوقائع، وامتازت بالتفاصيل الدقيقة عن الحياة النبوية. وإن هيمن عليها –كما سلفت الإشارة – البعد العسكري.

وكُتّاب السيرة والمغازي يسوقون كل ما مروياتهم، أوبلغهم من وقائع السيرة النبوية، ليس قطعاً بصحته. لذلك وجب إخضاع مرويات هذا الصنف للنقد.

على أنّ مرويات المصادر الأُوَل في السيرة والمغازي أوثق وأصحّ، وإن كان بعض أخبارها خلواً من السند، فإن استشهاد الأئمة والعلماء به، وإيرادهم لها دون نكير دال على قبوله.

5- كتب تاريخ الحرمين والتاريخ العام:

أما كتب تاريخ الحرمين فإنه عُني فيها مؤلفوها بتاريخ مكة والمدينة، قبل الإسلام، ثم خلال بعثة النبي صلى الله عليه وسلم. وذكر مآثر المدينتين المقدستين، وجغرافيتهما.

وفي كتب تاريخ الحرمين جوانب سيرية مهمة.

وأما كتب التاريخ العام فتتعلق بتاريخ الأمم أو البلدان، ويذكرون السيرة النبوية على أنها جزء من تاريخ الإسلام، ويسوقون أخبارها مستكثرين منها، مما كان صحيحاً أو واهياً أو موضوعا، ناقلين عن الثقة وغير الثقة. غير أنهم يذكرون الأخبار بأسانيدها. وطالبُ الاستمداد منها ملزم بالبحث عن صحة الأخبار من عدمها.

6- كتب الأدب واللغة:

ضمّت – بين تضاعيفها – نصوصا من شعر الدعوة، والخطب النبوية، وغيرها.

ويُلاحظ أن كتب اللغة والأدب تمثل أدنى المصادر الأساس للسيرة النبوية، فلا يُعتمد على أخبارها، وليست لها قيمة، إلا إذا تم عرضها على المصادر الأساس للسيرة، وهي القرآن الكريم وكتب الحديث. ومن الخطأ الركون إليها، واعتماد أخبارها على أنها حقائق تاريخية.

إن من أبرز دواعي الانحراف المنهجي للطاعنين في السيرة النبوية: الاعتماد على كتبٍ غير متخصصة، أو مصادر أدنى، مع توافر المصادر ذات القيمة السامية.

يلجأ المستشرقون والتغريبيون إلى كتب التاريخ العام أو بعض المؤلفات المتأخرة في المغازي، فيتلقفون منها الأخبار، ويتعاملون معها على أنها صحيحة ثابتة. ثم يبنون يؤسسون المواقف والاستنتاجات بناء عليها. مُعرضين – جهلاً أو تجاهلاً – عن المصادر الموثوقة: القرآن الكريم، وكتب الحديث النبوي، وكتب الشمائل والدلائل...

لا شك أن استحضار هذه المصادر الأساس واعتمادها في كتابة السيرة النبوية، وفق درجة أهميتها وأولويتها، عاصمٌ من كثير من ألوان الخلل والزلل.

ثم إن التصنيف الموضوعي في السيرة النبوية قد يكون كفيلاً بالكشف عن الأبعاد الأخرى الضامرة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

ففي البعد السياسي: ألّف د محمد حميد الله (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، وكتب أسماء محمد زيادة (دور المرأة السياسي في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين) وفي البعد العسكري: كتب اللواء محمود شيت خطاب: (الرسول القائد)، وكتب في (أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية) كل من محمد منير الغضبان، وناصر محمدي محمد جاد، وصالح الشمراني.

وفي الجانب التربوي كتب مهدي رزق الله أحمد (القيم التربوية في السيرة النبوية) وكتب عبد العزيز المقبل (رعاية الطفل في الإسلام).

وفي البعد الاقتصادي ألف عامر محمد جلعوط، وسامر مظهر قنطقجي (السيرة النبوية الاقتصادية)...

وإذا كانت السيرة النبوية هي التطبيق النبوي للوحي بجميع أبعاده وجوانبه، فإن الائتساء والاقتداء منوط بالكشف عن شتى مناحي الحياة النبوية. ومن هنا تكتسي مثل هذه الكتابات الموضوعية ذات المنهج التحليلي أهمية بالغة، في استجلاء جوانب تكاد تكون غير معروفة في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

خاتمة:

إنه ليس القصد الطعن في الجانب العسكري من السيرة النبوية، كلا. فذلك جانب مشرق من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، مطلوب من المسلم الاعتزاز به، والوعي به، واستمداد الدروس والعبر منه في الحياة المعاصرة. بل المطلوب تجاوز تضخم المرويات العسكرية السيرية، مما يجعل الجوانب المتعددة الأخرى من حياة النبي صلى الله عليه وسلم في غاية الضمور.

إن المطلوب هو قراءة السيرة النبوية قراءة متوازنة بين فروعها وفنونها، ومن مصادرها الرئيسة، بدءاً بالكتاب المجيد، ثم مدونات الحديث النبوي – خاصة الصحيح منها- فمصنفات السيرة المشرفة، ثم كتب التاريخ، فكتب الأدب واللغة، مع تحري المقبول من الأخبار، ومجانبة المردود، فضلاً عن الاستفادة مما أُلف من الدراسات التحليلية والموضوعية في السيرة النبوية، الهادفة إلى استنباط الفقه والدروس والهدايات، فذلك السبيل إلى حُسن تصور لسيرة نبينا المشرفة.

الهوامش:

[1] بتحقيق وتقديم سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1981

[2] السيرة النبوية مشروعا حضارياً، مجلة حراء، ع 3، أبريل يونيو 2006، ص 3

[3] مدخل إلى منهاج الإصلاح في السيرة النبوية، د الطيب برغوث، بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثاني للباحثين في السيرة النبوية، بفاس، 20-21-22 نونبر 2014، 375/1

[4] ينظر: فتح الباري، لابن حجر، بترقيم وتبويب: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية – مصر، ط1، 1390هـ، 281/7، و154/8

[5] مدخل إلى منهاج الإصلاح في السيرة النبوية، د الطيب برغوث، 376/1

[6] فقه السيرة، للغزالي، بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم – دمشق، ط1، 1427هـ ص 472

[7] صدر في اثني عشر جزءاً، بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط، وبشير عيون، نشرته مكتبة الحلواني، ومطبعة الملاح، ومكتبة دار البيان، ط1، 1969- 1972. وضع ابن الأثير مصنّفه على الأبواب، ورتب الكتب والأبواب على حروف المعجم.

[8] مصادر السيرة النبوية وتقويمها، د فاروق حمادة، دار القلم، دمشق، ط2، دت ص 57